



طبيعة الحياة كدر، يصيب الناس فيها الآلام وال المصائب والمشكلات والبلايا يوما بعد يوم حتى إنه لا يكاد أمرؤ أن تصفو له حياة في غير كدر، وتختلف انتطباعات الناس وردود أفعالهم تجاه ذلك الكدر، فمنهم من يقنقط، ومنهم من ييأس، ومنهم من ييأس، ومنهم من ينكسر، ومنهم من يقعى، وكذلك منهم من يقوم من كبوته ويتخذ عثرته دافعا له لخطوة نحو هدفه.

الضربة التي لا تقسم الظهر تقويه، حكمة صحيحة، فما من إنسان يستطيع القيام من كبوته والتغلب على كدره والصبر على محتته إلا ويخرج منها أقوى مما دخل، فقد صارت الآلام لا تؤلمه وصار الظلم لا يخيفه، يحكي أن أحد الملوك قد سأله حكيمًا أن يعلمه جملة يقرأها إذا كان حزينا سر، وإذا كان مسرورا لم يبالغ في فرح.. فقال له الحكيم : اكتب : "هذا الوقت سوف يمضي .."

وصدق الحكيم، فإن أوقات الآلام ما تثبت أن تمضي، وساعات المحن عن قرب تنقضى، والعسر ما يلبت أن يصير يسرا، والحزن عما قليل يصبح سعادة وحبورا، فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا "، قال السلف الصالح: لن يغلب عسر

يسرين، ومن قديم قال العرب: "الغمرات ثم ينجلنَه ثم يذهبن ولا يجنه" ويقصدون بها أن الأزمات عما قليل تنجلي، فإذا ما انجلت، ذهبت أيامها ولم تعد، فكيف إذا يأس المؤمن من لحظات الآلام وقد علم أنها لحظات اختبار؟! وكيف ينكسر في مواقف المصائب وقد علم أن ملائكة الرحمن تكتب ردود فعله؟!

مر النبي صلى الله عليه وسلم على امرأة وهي تبكي ابنا لها بجوار قبره، فقال لها: (اتق الله واصبر)، فقالت: إلينك عنِي، إنك لم تصب بمصيبي - ولم تكن تعرفه، فقيل لها انه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهبت إلى بيته ولم تجد عليه بوابين، فقالت: لم أعرفك، قال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى، إنها قاعدة أخرى جيدة جداً لنا وللجميع عند المصائب والآلام والأحزان، الصبر عند الصدمة الأولى، وفي اللحظة الأولى يتبيّن الصادق من الدعي.

وكجائزة للصادقين الصابرين علمنا النبي صلى الله عليه وسلم ذاك الدعاء الكريم المبارك إذ قال صلى الله عليه وسلم (ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول قدر الله وما شاء فعل اللهم أجرني في مصيبي وأخلفني خيراً منها، إلا أجره الله فيها وأخلفه خيراً منها)، قال العلماء: إن هذا الدعاء لم يخلف أبداً مع داعيه من قلبه بإخلاص، وحكي أهل العلم عنه حكايات طويلة هي في مجموعها جائزة حقيقة لمن صبر عند الصدمة الأولى واسترجع ودعا ربها.

بل إن الصالحين ليقلبون لحظات الألم والقدر رقياً وسموا وروحانية، إنهم يتذدونها لحظات عبودية، فيعلمون أنه لا ينجيهم من مصائبهم إلا الله، وأنه ليس قادر على أن يذهب الآلام إلا الله، وإنه ليس بمقدور أحد أن يمنع القوة أمام البلاء إلا الله سبحانه، فعندهم عادوا إليه، ولجأوا إليه، فتراهم سجداً، ركعاً، بكياً، بين يدي ربهم، يتقرّبون ويتذلّلون ويتوبون ويدعون آناء الليل وأطراف النهار، فتصير لحظات الآلام بالنسبة لهم مطهرة ومنجاً وتنقية وتشفية، حتى إن أحدهم كانت تصيبه المصيبة فيبتسم ويُسر ويخرج إلى الناس بثوب حسن وعطر حسن وبسمة تعلو وجهه، شاكراً حاماً.

وكيف إذا لا يصبر المؤمن في لحظات البلاء وعند ساعات السجود، ودقائق يمرغ وجهه لله ذلاً وانكساراً، وهو يعلم أن ربه الرحيم يراه، فيسبغ عليه رحمته، ويرخي عليه ستراه الجميل، فيرفع درجة، ويثبت أقدامه، وتمر عليه لحظات الألم فاقدده معناها الدنيوي الصعب، مرتدية معناها الآخرة العذب، كيف لا وهو بين يدي ربه الرحيم.

المسلم

المصادر: